وبعد هذا، فقد لاحظ «تودوروف» أنّ الخاصية الوحيدة المشتركة بين جميع الأشكال البلاغية أنها كلّها «مجوّفة Opaque» أي أنّها تنـــزع إلى أن تجعلنا نتلقى الخطاب، ذاته وليس دلالته فحسب.

هذه، إذاً بعض مبادئ الاتجاه البنيوي للبلاغة الجديدة في سياق عـــرض لبعض النظريات.

III- التحليل التداولي للخطاب:

إنّ المهمة الأولى حسب أنصار هذا الاتّجاه لتحديـــد علاقـــة البلاغـــة بالتداولية (Pragmatique) هي تعريف مجال كلّ منهما خاصّـــة أنّ هنـــاك بعض التعريفات الموسّعة المريحة التي تساعد على التحديد العلمي الدقيق وذلك مثل من يعرفون البلاغة بأنّها «فن القول بشكل عام» أو «فن الوصـــول إلى تعديل موقف المستمع أو القارئ» ممّا يجعلها مجرّد أداة نفعية ذرائعية[1].

يقول الباحث الألماني «لوسبرج» (Laus berg- H): «إنّ البلاغة نظام له بنية من الأشكال التصوّرية والبلاغية، يصلح لإحداث التأثير الذي ينشده المتكلم في موقف محدّد»[2].

أمّا «ليتش» (Leitch, V) فإنّه يرى بأنّ البلاغة تداولية في صميمها؛ إذ أنّها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع، بحيث يحلاّن إشـــكالية علاقتـــهما مستخدمين وسائل محدّدة للتأثير على بعضهما، ولذلك فإنّ البلاغة والتداولية البراجماتية تتّفقان في اعتمادهما على اللّغة كأداة لممارسة الفعل على المتلقـــي،

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 97.

2)- Del Formalis ma a la neoretorica, P: 196.

- نقلا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 97.

على أنّ النّص اللّغوي في جملته إنّما هو «نصّ في موقف» ممّا يرتبط لا بالتعديلات التي يفرضها أشخاص المرسل والمتلقي وموقعهما على معناه فحسب، وإنّما بالنظر إلى تلك التعديلات التي في سلوكهما أيضا[1].

ولكن هذا الاعتقاد قد يجعل من كل شيء بلاغة، انطلاقا من أنّ لكل شيء أهدافه النفعية، لذا فإن دارسي التداولية يرون أنّه من الأنسب تضييق مجال دلالة البلاغة؛ لأنهم يفهمون التداولية اللّغوية الآن كتنظيم غير مخالف لعلمي الدلالة والنحو وكلّ في المستوى المناسب؛ إذ أنه يقوم بجمعهما في مستوى ثالث خاص بالسياق المباشر، ممّا يجعل التداولية قاسما مشتركاً بين أبنيّة الاتصال النحوية والدلالية والبلاغية[2].

وعلى العموم، فإنّ التداولية هي المعرفة الشاملة بالآخر والمعرفة العميقة بمكوّنات عملية التخاطب، أو هي كما يحدّدها «فكوني» جزء من العلم المعرفي، باعتباره المستوى الوسيط بين العالم الحقيقي أو الفيزيائي، وعالم اللّغة، وهما عالمان لا يرتبطان بشكل ميكانيكي، وإنّما تعمل اللّغة على تجسيد سيرورة البناء المعرفي الواسع للعالم[3].

بيْد أن سيرورة البناء المعرفي لا يمكنها أن تعكس العبارات التي ينشئها الإنسان، ولا العالم الحقيقي الذي تعتبر قضاياه صورة للتعبير اللّغوي، وإنّما

---

1)- Ibid;196.

- نقلا عن نفس المرجع، ص: 98.

2)- Del Formalis ma a la neoretorica, P: 196.

- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 98.

3)- إشكالات التواصل والحجاج، ص: 14.

تنحو في اتّجاه تنظيم الميكانيزمات التي تشتغل وفقها الأنظمة السيكولوجية والذهنية.

فاللّغة باعتبارها ميكانيزما سيكولوجيا تتقاسمه ذهنية متنوعة (تركيب، استنباط، استنتاج، مجاز، معجم،...).

تشتغل وفق عمليات تفكيكية واستنتاجية، وهي عمليات أصبحت تُعالج اليوم في إطار تداولي داخل النظرية الحجاجية بعدما كانت تدرس داخل النظام التواصلي الذي تحكمه قواعد النقل[1].

يستنتج من هذا، أن التداولية هي العلم الذي يختصّ بتحليل عمليات الكلام بصفة خاصّة، كما يعنى بتحليل وظائف الأقوال اللّغوية وخصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام، هذا العلم الذي أخذ ينمو في العقود الثلاثة الأخيرة والذي تغذيه –حسب طبيعة «عبر تخصيصية» جملة من العلوم أهمها الفلسفة، وعلم اللّغة، والأنتروبولوجيا وعلم النفس، وكذا علم الاجتماع[2].

ومن أجل ذلك، يعنى التداوليون بالاقتراب من الخطاب كموضوع خارجي، أو كشيء يفترض وجود فاعل منتج له، وعلاقة حوارية مع مخاطب أو مرسل إليه.

ومن وجهة النظر الألسنية، فإن فكرة الفاعل ضرورية لمتابعة تحوّلات اللّغة في الخطاب وعلى العكس من ذلك ما نراه من وجهة النظر العملية المتصلة بالفواعل المتكلمين التي ترى بأن اللغة ليست نظاما وحيد الاتجاه، ولا الفاعل

1)– المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

2)– بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 25.

المتكلم وحده شخصية أو فردا معروفا في ممارسته القولية على الرغم من أنّ كلا من اللّغة والمتكلم يمثلان الأساس الضروري لنظرية اللّغة والأسلوب.

ففي علم اللّغة نجد أنّ تصوّر الفاعل المنتج للخطاب تقترن به ملاحظة حُضوره في هذا الخطاب ذاته، فالفعل الفردي ليمتلك اللّغة يدخل المتكلم في كلامه وهذا اعتبار يعدّ جوهريا في تحليل الخطاب، إذ أنّ الخطاب هو المكان الذي يتكون فيه فاعله ومن خلال هذا الخطاب فإنّ الفاعل يبني عالمه كشيء ويبني ذاته أيضا.

وعلى هذا الاعتبار، لابدّ من الإشارة إلى أهمية هذا الازدواج في فكرة الفاعل الذي يعتبر منتجا للخطاب، وناتجا عنه في الآن ذاته؛ حيث يتمثل وجوده فيه، سواء كان واقعا تجريبيا مثل مؤلّف النص، أو مرسل الخطاب القائم تاريخيا، وشخصيا أو كان تكوينا نظريا في إطار علم اللّغة طبقا للأصول المعرفية المنبثق عنها[1].

وهكذا، يعرف الفاعل من خلال خطابه، وتعتمد نظرية الخطاب على تصوّراتها الخاصة المتجانسة، ويشمل التحليل النصي موقف الفاعل الداخلي تجاه قوله.

وانطلاقا ممّا ذكر، فإن النصّ يقدّم دائما باعتباره «موسوماً» (Marqué) أو «غير موسوم» بطريقة شخصية أي أنّه يتّصل بفاعل يتجلّى فيه، معبّرا عن رأيه أو وجهة نظره، مشيراً إلى تجربة أو حدث متعلّق به ذاته، وعندئذ يصبح النص موسوماً، أو متّصلا بوقائع ومعارف موضوعية بعيدة عن القائل، وعندئذ يكون غير موسوم؛ هذان الوضعان الأساسيان للخطاب بكلّ ما

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 98.

يدخلهما من تعديلات وتداخلات يتجليّان نصيا من خلال العوامل التالية[1]:

– مؤشرات الشخص والمكان والزمان.

– كيفيات القول التي تحدّده مثل: موقف التأكّد واليقين، أو الشك والاحتمال.

– مؤشرات الموقف التي لا تتصل بفعل القول ذاته، وإنّما بوقف القائل ممّا يقوله، ويدخل في ذلك تلك العناصر اللّغوية الذاتية أو الخارجية التي تحدّد الموقفين.

وبناء على هذه العوامل قسّم التداوليون الخطاب إلى نوعين كبيرين: خطاب مباشر وآخر عير مباشر وهم لذلك «يعتبرون إدخال كلمات القائل في صيغة الخطاب بشكل مباشر يعدّ أقصى درجة من الموضوعية بقدر ما يلتزم عموماً بالنقل الحرفي دون تحريف حتى إنّ بعضهم يعتقد أنّه يمكن أن يصل الخطاب الذي يستخدم هذه الطريقة إلى نسبة 100% من الموضوعية»[2].

لكن هذه الموضوعية التي قال بها التداوليون قد لا تتطابق تماما مع الخطاب وتوضيحا لحالات الخطاب المباشر، يعرض الباحثون بعض الأمثلة والأشكال الخاصة به وهي كالآتي:

– يمكن استخدام كلمات شخص آخر لكي يعبّر الإنسان عن نفسه دون أن يغفل أنّ هذه الكلمات صدرت عن شخص آخر، ويمثل هذا الشكل

1)– Analisis del discourso, lozono, Jorge penaquarin, Grisixa, Abril- Gouzalo- Madrid- 1986- P:89.

– نقلا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 99.

2)– بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 100.

حالة النصوص المقتطعة من المؤلفين الذين يحتجّ بأقوالهم، أو يعتمد على سلطتهم الأدبية[1].

وكنموذج لهذا الشكل أن ينطق من يريد الانتقام بعبارة العين بالعين، والسنّ بالسنّ والبادئ أظلم».

أو كعبارة التهديد والوعيد الخاصّة بالحجّاج: «إنّي أرى رؤوسا قد أينعت، وقد حان قطافها، وإني لصاحبها».

على أن استخدام هذه العبارات الجاهزة يجعلنا أمام قائلين: القائل المقدس وهو صاحب العبارة الأصلي، والقائل الفعلي الذي يقوم بالانتقام أو التهديد، أي الذي يتقمص شخصية القائل المقدّس، متمثلا بكلماته، متّكئا على سلطته ومعانيه.

وفي أحيان أخرى يُرادُ بالخطاب المباشر مجرّد نقل الخبر، ولكن حتى هذه الظاهرة لا يمكنها أن تتصف بالموضوعية التامّة، لأن القائل ناقل الخبر قد يضفي عليه نسخة من الغضب أو السخرية، أو نبرة تهكمية دون تغيير الكلمات ذاتها[2].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ بعض الأشكال الخاصّة بالخطاب المباشر وعلى رأسها استخدام عبارات الغير، تحيل إلى تحليل النصوص الأدبية التي أضاءها «باختين» (Bajtin, M) ببحوثه، وتابعتها «كريستيفا» (Kristeva- J) بتعميقها لمفاهيم «التناحي» أو ما يسمّى «بالتناصية».

---

1)- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

2)- Analisis del discurso, P:149

- نقلا عن بلاغة الخطاب وعلم النفس، ص: 101.

أمّا القسم الثاني من أشكال الخطاب الكبرى فهو الخطاب غير المباشر والملاحظ، أنّ هذا الخطاب يتولّد من امتصاص خطاب الآخر وأدائه بطريقة غير حرفية، ممّا يتطلب تحويل أزمنته الفعلية، وتعديل ضمائره وإشاراته كي تتّسق في اتجاهاتها وإحالاتها الأمر الذي يجعله مختلفا عن الخطاب المباشر[1].

وهكذا، فإن القائل في هذا القسم من أشكال الخطاب يقوم بإعادة صياغة الكلام الذي ينقله متوخيا الدقة والحذر في نقله حينا، أو إيجازه واقتطاع بعض أجزائه حينا أخرى؛ مستخدما كلماته هو ليؤدّي بها ما قاله المتكلم المنقول عنه، فتصبح تلك الإشارة والأزمنة التي قام القائل بتغييرها أقل موضوعية وحيادا من الخطاب المباشر[2].

يستنتج من هذا، أنّ القائل يدمج خطاب الآخر في خطابه هو، وينقله إلى موقفه القولي، فيصبح المتكلم الأوّل شخصا غائبا ويتحول المضارع الذي استخدمه المنقول عنه إلى ماضٍ في عبارة المتكلم الثاني، أي إن إعادة الصياغة غالبا ما تتضمن الإبقاء على بعض عناصر القول الأوّل من تعبيرات مميّزة وعلامات تعجّب أو استفهام أو ترجيعات وتكرار، وروابط استدلالية وسببيّة وإشارات أخرى لغوية من قبيل الخطاب المباشر الأمر الذي يؤدّي بالضرورة إلى تداخل الفواعل[3].

---

1)- Analisis del discurso, P: 151.

- نقلا عن بلاغة الخطاب وعلم النفس، ص: 102-103.

2)- Ibid, P: 151

- نقلا عن المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

3)- Ibid, P: 151.

- نقلا عن المرجع نفسه والصفة نفسها

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره، يشير التداوليون إلى ظاهرة أخرى، هي ظاهرة «التباعد» (Distance)، فعندما يعمد المتكلم إلى اتخاذ موقف لا يدل على التبني الكامل لما يقول، فإن هذا يؤدّي إلى خلق مفارقة واضحة، وقد يتم ذلك عن طريق العلامات التنصيص أو غيرها، ممّا يجعلنا نتساءل: هل هناك دائما استيلاء على كلمات الآخرين، أو إشارة إليها كموقف مقابل يدلّ على التباعد عن الكلمة الخاصّة[1].

وإذا كان تيار تحليل الخطاب التداولي قد أفاد في الآونة الأخيرة من مبادئ السيميولوجيا فذلك أنّ وصف التوظيف السيميولوجي لا يتأتى عن طريق تحليل المكونات المعجمية والجملية، وإنّما عن طريق البحث في الخطاب بأكمله، وإذا كان اللّغويون قد تعوّدوا أن ينتقلوا من الأصوات إلى الكلمات ثم إلى الجمل، فقد شرعوا في الآونة الأخيرة في التدرّج نحو الخطاب ثم منه إلى الطبيعة والعالم.

وعموماً، فإن الخطاب من هذا المنظور يظل هو الأولى بالعناية باعتباره نمطاً من الإنتاج الدال، يحتل موقعا محدّدا في التاريخ، ويشغل علما بذاته كان يسمّى «البلاغة» من قبل[2].

ولكن هذا الخطاب الذي ظل ردحاً من الزمن يسمّى «بلاغة» لم يصمد أمام ما اعتراه من تحولات معرفية أسهمت فيها البحوث السيميولوجية، والتحوّل إلى ما يسمّى اليوم «علم النص» (Science du texte) وعليه، فإننا

1)- بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 103.

2)- Analisis del discurso- P: 36.

- نقلا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 107.

عندما نشغل بهذا الخطاب النصي ونصف طريقة قيامه بوظائفه، فإننا نلاحظ أن النظم البنيوية التي تكوّنه تتصل من الوجهة التداولية بظروف إنتاجه، مثلما تتصل بمشكلات فهمه وقراءته[1].

وفي النهاية نخلص إلى أنّ النص ينتج معناه بالتكييف الدلالي للأجزاء في ضوء البنية الكلية الشاملة للنص لا بالانتقال من الجزء إلى الكل.

IV- عملية الفهم ضمن إطار الوظائف الاتصالية للخطاب النصّي:

إن عملية الفهم تشكل دائرة مغلقة تحكمها قوانين محدّدة خاصّة بها، بينما تتّسع عملية التفسير لقضايا أخرى تتحكم بها عوامل متباينة وفي حين لا يتطلب فهم الوحدة اللّغوية مهارات خاصّة، فإنّ عملية التفسير تحتاج إلى مهارة إضافية، وعلى الرغم من اقتناع علماء النفس بأنّ الاتصال التفاعلي لا يقتصر على الفهم فقط، بل يتعدّاه إلى مرحلة التفسير فإنهما قد أدمجا في بوتقة واحدة، يشار إلى تحقيقهما بنجاح عملية الاتصال التفاعلي[2].

ونظرا لأهمية عملية الفهم، فقد بدأ التحول في مجال علم النفس المعرفي خلال الفترة الأخيرة من تحليل فهم الجملة إلى فهم النص/ الخطاب. ويلتقي علم اللغة بعلم النّفس المعرفي في الجانب الذرعي (المقصدي)، لكون التحليل اللّغوي بحاجة إلى نواح غير ظاهرة في الخطاب، ومجال وجودها هو التحليل

---

1)- Analisis del discurso, P: 36.

- نقلا عن بلاغة الخطاب وعلم النص، ص: 107.

2)- مقال العلاقة بين فهم القارئ وفهم كاتب النص، د.فالح شبيب العجمي، عالم الفكر، المجلس الوطني الثقافي والفنون والآداب، دولة الكويت، المجلّد 28، العدد01، يوليو/سبتمبر 1999، ص: 346-347.